

ثالثاً

علم الطالب المتكامل

«في القرن الحادي والعشرين، الأميون لن يكونوا أولئك الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة، بل الذين لا يستطيعون التعليم ونسيان ما تعلموه، ومن ثمّ التعلّم مجدداً.»
 ألفين توفلر Alvin Toffler (1)

هناك حاجة ملحة إلى إدخال التعليم التحويلي إلى حقل التعليم؛ لأنه تعليم شامل، وهو ما يعني تعليم الشخص المتكامل. إنّه مفهوم يبدو غريباً؛ كونه يثير التساؤل عما إذا كنا نستطيع تعليم جزء من الطفل. ومن الغريب أنّ هناك معلمين يفعلون هذا تماماً، فيستجيب الطلاب تبعاً لذلك - غالباً، أو خصوصاً، بسبب اهتمام المجتمع بالأداء الأكاديمي، وانعدام الثقة في التعليم الذي لا يخضع للقياس. وفي الحقيقة أنّ الطلاب يحتاجون، بل يريدون، معلمين يرشدونهم ويتعاملون معهم بأنهم أفراد كاملون، وليس طلاباً فقط. علينا أن نسعى إلى تحقيق الأمرين معاً.

إنّ مبادرة الطفل المتكامل The Whole Child التي أطلقها موقع رابطة مراقبة المناهج الدراسية وتطويرها تصف أهمية تعليم الشخص المتكامل كما يأتي:

«القرن الحادي والعشرون يتطلب قوة عاملة، ومواطنين على درجة عالية من المهارة والتعليم لم نشهد لها مثيلاً من قبل. ذلك أنّ السوق والاقتصاد العالمي حقيقة واقعة. إضافة إلى أن التغيير والابتكار أصبحا الواقع الجديد.

(1) كاتب ومفكر أمريكي وعالم في مجال دراسات المستقبل

لذا، فإنَّ الأساسَ القوي في القراءة، والكتابة، والرياضيات، وغيرها من المواد الأساسية أمرٌ على قدر كبير من الأهمية مثلما كان دائماً، لكنه غير كافٍ لنجاح مستدام. إنَّ هذه المتطلبات تحتاج إلى طرائق جديدة أفضل في وضع السياسة التعليمية وممارستها: إنَّها منحي الطفل المتكامل في التعليم والتدريس ومشاركة المجتمع.

تطرح مبادرة الطفل المتكامل تعريفاً للتحصيل والمساءلة يعزز تطور أطفال أصحاب، آمنين، مشاركين، يتلقون الدعم، ولديهم روح التحدي. ونحن نسعى إلى إعادة تعريف الطالب الناجح وكيفية قياس النجاح. إنَّ رابطة مراقبة المناهج الدراسية وتطويرها تساعد المربين، والعائلات، وصانعي السياسات، على الانتقال من موقع القول إلى موقع الفعل لتحويل تعليم الطفل المتكامل إلى واقع» (ص.1).

إليوت إيسنر (2005) Elliot Eisner، أثار قضية المشكلة الثقافية. ونحن نواجه معضلة إيجاد بيئة أكثر شمولية في مدارسنا. وتساءل عما يمكن أن نفعله عندما يستهين المجتمع كثيراً بنهج الطفل المتكامل، ويفضل مزيداً من التطابق وقدراً أكبر من الكفاية؟ وكتب يقول:

«هل يمكن للمدارس أن تظهر قيمة أكثر سلاسة تختلف اختلافاً جذرياً عن وجهة النظر الثقافية المهيمنة؟ ونظراً إلى حقيقة أنَّ الأداء الأكاديمي هو مفتاح النشاطين الاقتصادي والاجتماعي، هل يمكننا توقُّع أن يخاطر الناس بإضفاء حيوية على الحياة المدرسية في المجالات غير الأكاديمية، إذا كانوا يخشون أن يؤدي ذلك إلى الإضرار بالأداء الأكاديمي لأبنائهم؟» (ص. 16).

إنَّ هذه الخشية ليست محصورة في المجتمع، بل في بعض المعلمين أيضاً؛ لأنَّ التعليم من أجل أهداف شمولية يحمل مخاطرة لهم. وهم يعتقدون أنَّ التدريس الذي يعتمد على إعطاء المعلومات فحسب، مع كلِّ مظاهره المعاصرة

المخادعة، هو الخيار الأكثر أمناً؛ لأنه يرتبط بالماضي، أي بالمجتمع المعروف الذي كان فيه التدريس ظاهرياً يتناول التطور الأكاديمي فقط. لكن المعلمين العظام كانوا دوماً يشجعون على التعليم الكلي؛ لأنهم أدركوا أنّ التعليم الوعظي الضيق ينشئ طلاباً ذوي تاريخ صلاحية؛ طلاب يدرسون بنهم من أجل اجتياز الاختبارات النهائية، مقابل رغبة وقدرة متدنية لمواصلة التعلّم مدى الحياة.

وكان من نتيجة هذا التعليم ضيق الأفق أن أصبح لدينا كثير من الشباب الذين لا يعرفون من الذي ألقى خطاب جيتسبيرج⁽¹⁾، ويجهلون بضع كلمات من وثيقة الاستقلال، أو تحديد مكان ولاية جورجيا على الخريطة. ولهذا، ليس هناك بديل لتعلم المهارات الأساسية، وفرض الدقة الأكاديمية، وعقد آمال كبيرة على الطلاب، وقياس التقدم التعليمي. أما تعليم الطلاب لمجرد حفظ المعلومات فيمكن أن يكون خبرة تخديرية مملّة لكلّ من الطلاب والمعلمين. إنّ المضمون وحده لن ينشئ طلاباً متحمسين، إضافة إلى أنه لن ينمي إحساس الطلاب بالارتباط بالعملية التعليمية أو بمجتمعاتهم.

من الواضح أنّ الاختبارات المصيرية التي تُعقد على مستوى الولاية لها وقع كبير على المجتمعات المدرسية؛ فقد أبرز العنوان الرئيس في صحيفة تينيسي في الثامن من يناير 2010، مثلاً، أنّ الأيام الثلجة تجعل امتحانات برنامج تينيسي للقياس الشامل مصدر قلق للمعلمين. في تقرير الصحيفة، أعرب المشرف العام للامتحانات، وهو أحد المدافعين عن تعليم الطفل المتكامل، عن قلقه من أنّ ما بقي أمام الطلاب قبل تقديم امتحان التقييم الشامل هو تسعة وأربعين يوماً فقط، وأنّ تعطيل المدرسة يعني ضياع وقت ثمين للتدريس. ويُستدلّ من هذا التصريح أنّ التعليم وسيلةً لأولوية جديدة في المدرسة، وبطارية اختبارات في الربيع. إحدى مديرات المدارس

(1) الخطاب ألقاه أبراهام لينكولن عام 1863، وأعلن فيه إنهاء الرّق، وُعدّ أهمّ خطاب في تاريخ أمريكا.

(T.Cheshier, 2010) كانت متوترة من ضياع وقت التعليم، وقالت للصحيفة: أتمنى لو أنّ امتحانات الولاية تُعقد لاحقاً. إذا كان سيُحكّم علينا بناءً على ما نعلّمه، فيجب إعطاؤنا الوقت الكافي لتعليمه. سواء أعجبكم الأمر أم لا، فإنّ هذه المديرية تقول: إنّ نوعاً جديداً من التعليم المعلوماتي قد فُرض علينا، ومعظم من في المدرسة غير راغبين فيه. إنّ أكثر ما يبعث على الحزن هو أنّ المعلمين، وبمرور الوقت، يمكن أن يقبلوا بهذه النظرة بأنّها صحيحة وجيدة، فالـتعليم الذي يهتم بالاختبارات المصيرية أصبح في الواقع سباقاً لتحديد مَنْ يفوز ومتى.

نحن نؤمن بأنّ التعليم يجب أن يكون ذا علاقة بالأفراد، وأنّ الاستثمار في الطلاب مسألة تتعلق بالعلاقات، وهذه العلاقات معقدة، وأحياناً تتطور ببطء. لقد تضمنت نظرية الطفل المتكامل دائماً جوانب مادية وفكرية واجتماعية- عاطفية من التعليم. ويجب ألا يكون المجال الاجتماعي محدوداً لدرجة استثناء إمكانات النفس البشرية. الألماني فريدريك فوريبل (1852 – 1782) Friedrich Froebel، الرجل الذي أنشأ رياض الأطفال، كان يؤمن بأنهم يمتلكون قوة روحانية داخلية، هي التي تحفّز نشاطهم. أما ماريا مونتيسوري Maria⁽¹⁾ (ميرفي، 2006) فعبّرت عن فكرتها المهمة عندما اكتشفت العالم داخل نفس الطفل (ص. 369). لذا، يجب أن يولي التعليم مثل هذا الاهتمام بالنفس البشرية. إضافة إلى أنّ العلاقات التي تهب الإلهام بين المعلمين والطلاب يمكن أن تثري إمكانات النفس البشرية ودوافعها.

(1) ماريا مونتيسوري 1870-1952 طبيبة ومربية إيطالية، بدأت أعمالها المهمة مع الأطفال المعوقين عقلياً، وحققت في ذلك نجاحاً كبيراً. وضعت نظرية منفردة في التعليم عُرفت بمنهج مونتيسوري. وبعد سنوات من البحث والدراسة، توصلت إلى الاعتقاد بأنّ التربية الذاتية هي القاعدة الأساسية لطرائق التدريس جميعها؛ أي إنّ الطفل يعمل بنفسه على وفق قدراته وميوله.

الاستثمار في النفس البشرية



سيبسكيت Seabiscuit؛ حصان سباق صغير الحجم، حقق نجاحاً غير مسبوق في حقبة الكساد الاقتصادي التي عصفت بالولايات المتحدة عام 1929، واستمرت حتى مطلع الأربعينيات من القرن الماضي. مالك الحصان، تشارلز هوارد، من سان فرانسيسكو، جمع ثروته بعد أن أخذ يبيع سيارات من نوع بويك بدلاً من الدراجات.

وفي فيلم أنتج عام 2003، حياَ الرجل مساعديه قائلاً: إذا كنا نستطيع أن نبدأ من هناك وننتهي هنا، فليس هناك ما لا يمكننا القيام به. هذه الكلمات لا تنطبق على نجاح هوارد في تجارة السيارات، بل أيضاً على الرجل الذي كان يملك الحصان (هوارد) والمدرب (توم سميث) والفارس الذي امتطاه (ريد بولارد). لقد عملوا معاً، وكان كلٌّ منهم يثق بالآخر بقدر ما كانوا يثقون بالحصان سيبسكيت، وحققوا المعجزة عبر الأمل، والمثابرة، والثقة بالنفس. في التعليم، وبالتحديد في تعليم الطلاب الأقل حظاً، ليس هناك ما لا يمكننا القيام به، عندما يثق المعلمون بالإمكانات البشرية لطلابهم. إنَّ الدعم المخلص، واستثمار أحدهما في الآخر يمكن أن يحقق إنجازات عظيمة في غرفة الصف؛ كتحفيز النفس البشرية مثلاً.

تحفيز الطالب المتكامل

يجب أن يصدر أساليب التدريس التحويلي الذي يلهم الطالب المتكامل عن معلمين ملتزمين باتساع الشمولية الأكاديمية، والاجتماعية، والروحانية، وعمق تحفيز الطلاب لفهم العالم الذي يعاشونه. ويمكن للعمق في عملية التعليم أن يقود إلى أعلى المقاييس في تلك العملية؛ طلاب يعتمدون بصورة أقل على معلمهم في عملية التحفيز، ويعتمدون بصورة أكبر على أنفسهم، والمفتاح لتحقيق ذلك هو التفاعل مع معلم ملهم وذو عزيمة.

ولكن، ما الذي يمنعنا من تعليم الطالب المتكامل؟ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في الضغوط المنتظمة من أنظمة الولاية والحكومة الاتحادية (الفيدرالية) التي تدفع في اتجاه التعليم من أجل اجتياز الامتحانات. وعلى الرغم من أن كثيراً من المعلمين ملتزمون بالوصول إلى عقول طلابهم وأرواحهم، فإن آخرين يحجمون عن التدريس كلياً. إضافة إلى أن اعتداد بعض المعلمين بأنفسهم لتمكنهم من الموضوع الدراسي يدفعهم إلى الاعتقاد بأن تشديدهم على هدف واحد أمر أساسي وضروري. والمفارقة هي أنه من الأسهل أن تكون معلماً تقليدياً ملقناً. وهي مفارقة؛ لأن الضغوط السياسية تدفع بكثير من الناس إلى الاعتقاد في أن المعايير تطالب المعلمين بالعمل بجدية أكبر. لكن العكس هو الصحيح؛ فالتعليم المعلوماتي يتطلب تخطيطاً أقل بكثير مما يتطلبه التعليم التحويلي.

يتطلب التعليم التحويلي تخطيطاً أكثر بصورة ملحوظة، ومستوى من التعقيد يجبر الطلاب على طرح أسئلة، ليس فقط مثل: ما الذي تعلمته؟ بل أيضاً: ما الذي أصبحت عليه؟ وكذلك: كيف أثر ما تعلمته في نظرتي إلى العالم؟ ولأنّ الخوف يجعل عقولنا تعمل بصورة آلية، ويمكن أن يعيق المسؤولية التربوية، فنحن نخاف من قلب التعليم ليوائم المعايير الحالية بالتشديد أكثر على المضمون. وربما نحن خائفون من أن يفكر زملاؤنا في أننا نتخلى عن التزامنا بالمعرفة الأكاديمية، عندما نحاول الوصول إلى مجالات أكثر خصوصية في التعليم. نعم، نحن خائفون. ليس بالضرورة من زيادة العمل الشاق، بل من تصور أنّ مثل هذا الجهد لا لزوم له. وربما كان الأهم من ذلك كله، هو خوفنا من اختراق الحدود الاجتماعية مع الطلاب، ومن ثمّ فقدان السيطرة الأكاديمية.

يمكن لعلم الأعصاب أن يبدد تلك المخاوف بمنطق مستند إلى العقل؛ فالتفاعل الاجتماعي منغرس أيضاً بقوة في العقل البشري. ولهذا، لا يُقصد من التعليم أن يكون تجربة معزولة، بل جزءاً من هذا التفاعل. ويمكن للمعلمين أن ينشئوا مجتمعات من المتعلمين (كولينز، 2006) عندما يكونون القدوة لطلابهم في التوقعات الكبيرة والحساسية. إنَّ من شأن التصميم على إيجاد مجتمع من المتعلمين أن يشجع سلوكيات التعلُّم المستقل، ويطوِّر حبَّ التعلُّم مدى الحياة. لذا، فإنَّ قوة تأثير المعلم في حياة الطلاب أمر لا نقاش فيه. وقد لخص هذا التأثير اللغوي الشهير فرانك سميث (1988) Frank Smith بقوله: سوف يتعلم الأطفال كيف يكتبون ويقرؤون إذا كان الأشخاص الذين يحترمونهم يقرؤون ويكتبون. وعليه، فإنَّ أحد الأشياء الأساسية لتحفيز الطلاب نحو فهم أعمق هو أن يكون لهم النموذج المثالي، والقدوة الحسنة.

عائلة الطالب الممتدة



إنَّ أفضل من يقود مجتمع الطلاب هو معلم تحويلي، يجمع بين قوة الفهم العميق والتعليم الكلي. ويمكن لمعلم حكيم وموثوق به أن يكون معلماً ناصحاً ومستشاراً؛ لأنَّ الحكمة والثقة مسألتان مهمتان في تعليم الطالب المتكامل. ومع ذلك، نود أن ننبه إلى حقيقة أن ليس كل شخص يرغب في أن يتعلم؛ أو أنَّ كثيراً من الطلاب تعلموا نوعاً من عدم الاكتراث بالمدرسة في الأقل. من أين تعلموا ذلك؟ أولياء الأمور؛ هو أحد الأجوبة السهلة. ولكن علينا ونحن نسعى وراء حلول، أن نضيف إلى قائمة العائلات الممتدة: التلفاز، والسينما، والموسيقا بصفتها من الوسائل التي تتحمل المسؤولية. وللخروج من هذا المأزق، على المدارس والمعلمين السعي ليكونوا جزءاً من قرية، أي عائلة ممتدة وواعية في رفضها أو استخدامها لوسائل الإعلام. ونحن نؤمن بأن توجيه التعليم الكلي قضيةٌ عائليةٌ تتسم بشجاعة روحانية.

إيمي؛ معلمة في مدرسة ذات وسائل تدريس غير تقليدية، وذات مناهج خاصة. وهي معلمة خبيرة، ولديها رغبة عميقة في رؤية طلابها ناجحين، وهذا هو السبب الذي يجعلها تواصل العمل في بيئة ناكرة للجميل على ما يبدو. لم تكن شمولية أساليب التدريس (البيداغوجيا) مشكلة لإيمي. في الأمس فقط، واجهت مشاجرة عنيفة في القاعة خارج صفها المدرسي. اهتزت، لكنها ظلت مرنة، واضطرت مع مديرة المدرسة إلى توقيع توصية بفصل الطلاب المتورطين في المشاجرة من المدرسة. كانت إيمي تهتم بالطلاب بالوسائل كافة، وفي ذلك التعامل بحب، ولكن بحزم عند الضرورة. كانت مرنة؛ لأنها كانت تتطلع إلى نجاح كل طالب على حدة. وكانت تعيش من أجل اليوم الذي ينهي فيه طلابها دراستهم الجامعية، ويحصلون على وظائف.

صانعو السياسات التعليمية، والإداريون، والمعلمون كلهم محاربون في معركة من أجل تنمية عقول الطلاب الصغار، معركة تصب نتائجها في الجهد الوطني بالأبداً يتخلف أو يحرم أي طالب، وهو هدف يستحق الجهد بالتشديد. على أي حال، نحن نعتقد أن المصابين في تلك المعركة ليست تلك الولايات التي تتجاهل عن قصد جيلاً من الطلاب كله. وتذكرنا جلوريا لادسون - بيلينجز (2006) في أن المشكلة التي يجب أن يواجهها المعلمون حين يدرسون الطلاب ذوي المستويات المتدنية - لا تتعلق بماذا يعلمون، بل بكيف نفكر في: المضمون الاجتماعي، وفي الطلاب، وفي المناهج الدراسية، وفي التدريس (ص. 30) في المقام الأول. لقد كتبت عما أطلق عليه بعضهم اسم المناهج الدراسية الخفية؛ التعليم الذي يجري داخل غرفة الصف وخارجها. وهؤلاء يرون أن المنهج الدراسي هو ما يجري تعليمه سواء أمقصوداً كان تدريسه أم لا، فالطلاب يمرون بخبرة المنهج الدراسي الخفي، مثلاً، في حافلات المدرسة وممراتها. ويتعلمون دروساً غير معدة لإعطائها بأنها من التعليم في المدرسة.

تنصّبُ مخاوف لادسون - في كيفية تفكيرنا في طلابنا من حيث فهم المعلمين لمدرستهم والتعلّم غير المدرسي، ومن حيث توقعات المعلمين. وهي تؤكد أنّ المعلمين في حاجة إلى معرفة أنّ هويات طلابهم معقدة، وأنها تتكوّن بثقافة هؤلاء الطلاب بصورة حاسمة. لأنه، سواء كان المعلمون يفكرون في طلابهم بأنهم فقراء وضعفاء أو بارعون ومرنون، فإن ذلك يمكن أن يوضح الفرق بين أساليب التدريس القائمة على منظور تعويضي، وتلك القائمة على أسس نقدية وتحريية (ص. 31). وعليه، يتطلب تعليم الطالب المتكامل أن يفهم المعلمون البيئة الثقافية التي يُعلّمون ضمنها؛ لأنّ التعليم الكلّي يستند إلى واقع الطلاب؛ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي. لذا، فإنّ تعليم الشخص المتكامل يسمو على القضايا التي يعانها إصلاح التعليم، وأنّ نموذج أساليب التدريس التحويلي يمثل توقعات شاملة في أنه يمكن للطلاب أن ينجزوا أكثر في أثناء عملية التعلّم.

عملية التعليم: ميزات التعلّم الإستراتيجي

يتطلب تعليم الطفل المتكامل انتباهاً للمحتوى، وكذلك للمشاعر والخبرات، والتشديد على زيادة قدرات طلابنا إلى الحدّ الأقصى. وتتطلب الفرصة والوقت المخصصان للمعلمين لتدريس الطلاب معرفة المحتوى، ومدى واسعاً من الكفايات الاجتماعية - العاطفية - الروحانية، ومهارات تتيح للطلاب التعلّم باستقلال، والتكيّف، وتنظيم أنفسهم.

إنّ الطلاب، عن طريق مهارات عملية التعلّم، لا يكتسبون المعرفة الأكاديمية فحسب، بل يتحدّون الأهداف الاجتماعية والروحانية المطلوبة؛ ليكونوا متعلمين مستقلين. ويُسمى المستوى الذي يبدأ فيه الطلاب عملية التعلّم بالاستعداد، وهو المفهوم المفقود في عصر المناهج التسريعية. لا يمتلك كثير من الطلاب، من الأعمار كافة، الأدوات ولا الخبرة للاستجابة بنجاح لما يتطلبه إتقان المحتوى الأكاديمي والمهارات؛ لأنهم غير مستعدين للتفكير الرمزي.

تعزيز الاستعداد



يمكن تخيل الاستعداد أو الجاهزية أنها سلسلة من التغير الطفيف المقترن بالتفكير الواقعي في طرف، والقدرة على تكوين مفهوم في الطرف الآخر. يتطلب حلّ المسائل على المستوى المجرد مهارات قائمة على مزيد من التفكير الواقعي. وقد تطورت مثل هذه المهارات عبر عملية لا يجوز عدّها أمراً مفروغاً منه. مثلاً، يكون معظم الأطفال في سن السادسة والسابعة تبعاً لنموهم غير مهينين، للقراءة أو للأفكار الغامضة أو الرياضيات. وفي الحقيقة أنّ معظم المراهقين لا يكونون مستعدين، تبعاً لنموهم، لتكوين مفهوم دون أمثلة ملموسة؛ لأنّ إدراك مفهوم القيمة المكانية يتطلب فهم المهارات القبلية للرياضيات، وهي الأعداد والتسلسل والعدّ. إنّ أسس التعليم الشمولي يجب أن تُوضع من قِبَل معلمين ذوي عزم، قادرين على إصدار إعلان استقلال لطلابهم، معلمين قادرين على ملاحظة افتقاد معظم طلابهم للمهارات العملية، أي إطلاق سراح كيفية اكتساب الخبرة عبر التعليم. ويحتاج الطلاب إلى تعليم واضح، أو أن يمنحهم المعلمون والآباء الفرصة كي يتقدموا نحو الأمام.

لكي يصبح الطالب متعلماً مستقلاً، يجب أن تكون لديه الرغبة في مثل هذا المجال من الحرية، وكذلك معرفة كيف يتعلم. وتأتي الرغبة في الاستقلال من نموذج للنجاح أمام الطالب، في حين تقوم عملية معرفة كيفية التعلّم غالباً على محاولات التجربة والخطأ. ربما يبدو في الأمر شيء من التناقض، لكن أفضل المعلمين اختبروا التعثر المُسيطر عليه، حيث يُسمح للطلاب بالاستكشاف والاكتشاف، وبالنجاح وال فشل، ضمن غرفة الصف في بيئة تتسم بالرعاية والدعم. دون اختبار الفشل، لا يستطيع الطلاب معرفة النجاح، ولا يجوز أن يكون الفشل عميقاً إلى حدّ يحبط الطالب ويفقده الأمل. ويجب أن

يتعرض الطلاب لدرجة من التحدي المناسب لتطورهم الثقافي. وإن المعلم التحويلي قادر على ملاحظة إشارات الإحباط في سلوك الطلاب والتدخل في الوقت المناسب.

ماركوس؛ يدرّس اللغة الإنجليزية في إحدى المدارس الحكومية التي تدرّس مناهج ودورات متخصصة عبر مشروعات كتابة وقراءة تشدّد على التفكير الناقد وحلّ المشكلات. وقد وجد أنّ أساليب الإعداد للاختبارات تكوّن عوائق غير ضرورية للتعليم الحقيقي الذي كان يرغب فيه. في الواقع، كان أداء طلابه أفضل عندما يكونون أحراراً في التشديد على مهارات العالم الحقيقي المرتبطة بالبحث، وبناء البراهين، وعرض المعرفة. خلال مشروع عن رواية الكاتب الأمريكي سكوت فيتزجيرالد F. Scott Fitzgerald (غاتسبي العظيم)، Great Gatsby بدا جيروم، أحد تلاميذه، قلقاً ومنفعلاً بشدة وهو يقول: لا أرى أيّ فائدة من قراءة كتاب لمؤلف [فيتزجيرالد] يصف شخصية خيالية عاشت في عشرينيات القرن الماضي. لا أشعر أنّ لي علاقة بما أقرؤه. عند تلك النقطة، لاحظ ماركوس أنّ جيروم يفترق إلى المنظور والثقة التي يمكن أن تتعزز من خلال الخبرة الإضافية. لذا، قرّر التّدخل.

أخذ جيروم جانباً، ودرسا فصلاً واحداً من الرواية، وهو الفصل الذي يصف توم وديزي بأنهما شخصان ثريان، شخصان غير مباليين، يدمران الممتلكات والناس، ثم يتركان للأخرين إصلاح تلك الفوضى التي خلفاها. طرح ماركوس السؤال الآتي: ما الفوضى التي نتركها اليوم لتقوم الأجيال المقبلة بإصلاحها؟ هل لديك أيّ أفكار مناسبة؟ أدى الجواب إلى بحث بعض القضايا في السياسة والعلوم والبيولوجيا، وقد جعل إظهار هذه الارتباطات جيروم أكثر استعداداً للثقة بالخبرة التعليمية التي يخوضها.

مميزات التعلم الإستراتيجي

ينجح المعلمون الذين يثقون بالعملية التعليمية في الوصول إلى مخرجات التعلم، التي هي أهداف التعلم ومقاييسه. ولكي يتمكن المعلمون من مواجهة العمق والشمولية في تعليم طلابهم ضمن بيئة تعليم مثالية، فإننا نقترح الميزات الآتية للتعلم الإستراتيجي. ولأخذ بيد المعلمين على إيجاد طلاب أكثر استقلالاً عندما يتجون المجال أمامهم لتطوير ميزات التعلم الآتية:

- **الانفتاح openness:** صفة تخدم الطلاب بصورة جيدة في التأمل الذاتي الناقد للافتراضات السابقة، وتمنحهم الحرية لنقاش الموضوعات مع الطلاب الآخرين ومع المعلمين وغيرهم من الراشدين.
- **الشك skepticism:** اتجاه يبدأ بالانفتاح، ويتيح للطلاب اختبار منظورات جديدة وتطبيقها بطرح أسئلة ذات مغزى ومهمة. يكون الشك في أفضل الأحوال بحثاً عن الحقيقة. ويتصف بالثقة والبساطة، ولاسيماً في وجه التعصب والجمود الفكري.
- **الكياسة civility:** صفة تتيح للطلاب احترام زملائهم ومعلميهم. وهي تعني الاستعداد للتعامل مع الآخرين بهدوء، والتعاون معهم في بيئة التعلم.
- **المثابرة persistence:** سلوك مرتبط بالفاية؛ حيث يثابر الطلاب على تحقيق الهدف على الرغم من وجود عقبات. ويمكن للمعلمين تشجيع المثابرة بتزويد طلابهم بمصادر التعلم المطلوبة، والدعم العاطفي المناسب.

• **الخيال imagination:** روح إبداعية تصل إلى ما هو أبعد من الحواس. إنه صفة على قدر كبير من الأهمية؛ لأنها تأخذ الطالب من الموضوعي إلى غير الموضوعي، ثم تعيده مرة أخرى. وعن ذلك، قال عالم الفيزياء ألبرت أينشتاين Albert Einstein: (الخيال أهم من المعرفة) (إيزاكسون، 2007، ص. 7) Walter Isaacson.

• **حب الاستطلاع أو الفضول curiosity:** صفة تشجع الطالب على اكتشاف كل شيء وأي شيء بحرية. وهي سمة يجب على المعلمين تلميتها؛ لأن الفضول سمة تحديد لنوعية الإنسان.

كان أينشتاين معروفاً بخياله الواسع وفضوله، وقد ذكر إيزاكسون (2007)، الذي أرخ حياة عالم الفيزياء، أن أينشتاين وجه دعوة إلى الشاعر الفرنسي سان جون بيرس Saint-John Perse 1887-1975، وسأله فيها عن كيفية كتابة الشاعر قصائده: كيف تأتي فكرة القصيدة؟ شرح الشاعر الدور الذي يقوم به الحدس والخيال، فرد أينشتاين بابتهاج: «الأمر ذاته ينطبق على العالم. إنها ومضة خاطفة، شيء أقرب إلى النشوة. بعد ذلك، وللتأكيد، يحلل الذكاء بتحليل الحدس، ثم تؤكد التجارب ذلك الحدس أو تنفيه. ولكن مبدئياً، هناك فقرة خيال كبيرة إلى الأمام.» (ص. 549).

إنّ التشديد على مهارات عملية التعلم، وهي ميزات التعلّم الإستراتيجية، يعني الاهتمام بالبيئة التعلّمية؛ فالطلاب الذين يجدون أنفسهم في بيئة تشجع الاستقصاء، والذين يتوقع منهم استخدام مهارات حلّ المشكلات، والذين يُطلب إليهم أن يكونوا موجهين ذاتياً في تعلّمهم - قادرون على تطوير تلك الصفات. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الذكاء؟ ربما كان جان بياجيه Jean Piaget يملك أبرز التعريفات للذكاء؛ إنه القدرة على حلّ المشكلات. عندما نطلب إلى التلاميذ

القيام بعمل شاق، وأن يحلّوا المشكلات ضمن بيئة داعمة، فإنهم يعمّقون فهمهم للمحتوى، وينهمكون في عملهم، وهو ما يؤدي إلى مزيد من الانضباط الذاتي. وبذلك، يكتسبون ميلاً للتعلّم مدى الحياة. عام 1938، وصف جون ديوي John Dewey هذا العمل بأنه استمرارية الخبرة مدى الحياة Lifetime continuity of experience. ولتحقيق هدف التعلّم المستقل لدى الطلاب، على المعلمين أن يتعمدوا السماح لطلابهم بتطوير هذه الصفات السّتّ.

إعلان الاستقلال

توماس جيفرسون Thomas Jefferson، ثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، أكّد في إعلان الاستقلال الذي وضعه الحقوق الطبيعية، وهي المطالب التي لا يمكن فصلها عن البشر؛ لأنها هبة من الله، وذكر ثلاثة منها وهي: الحياة، والحرية، والسعي إلى تحقيق السعادة، فما المطالب الطبيعية غير القابلة للتصرف بالنسبة إلى التعليم؟ هناك بلا شك واحد منها، هو الحق في أن يصبح الطالب مستقلاً. ولكن، كيف يستطيع المعلمون تمكين طلابهم من تحقيق الاستقلال؟ هذه قائمة قصيرة يمكن أن تشمل المعلمين الذين:

- يسمحون للطلاب بالمحاولة والخطأ المُسيطر عليه لحل المشكلات أو المسائل؛ أي تحت رقابتهم. وليس هناك من شك في أن الطلاب يتعلمون عندما يخطئون في بيئة داعمة. في التعليم، المبالغة في التدخل مذمومة، واليسير منه محمود. المعلمون - المهتمون المتعاطفون يعرفون متى يتدخلون، ويساعدون طلابهم على تطوير المثابرة لديهم.
- يشجعون على التفاعل الاجتماعي الذي يشدّد على التعلّم الاستقصائي. يتعلم الطلاب من بعضهم عندما يتشاركون في

أهداف التعلم المتبادلة. إن الكياسة وحسن الأدب من الصفات التي يتعلمها الطلاب بالممارسة تحت عيني معلم حريص عليهم. ويجب أن يشمل التفاعل الاجتماعي أيضاً التشاور وعقد لقاءات بين المعلمين والطلاب. ويحتاج الطلاب إلى رعاية معلمهم لتنمية الثقة، والفضول، والانفتاح، والشك.

- يمثلون نموذجاً للروح الإبداعية عن طريق تحدي الطلاب بأسئلة عظيمة وأفكار صعبة. هناك طريقة مقنعة لتحدي الطلاب، هي تقديم سيرة ذاتية قصيرة لأشخاص ذوي إنجازات كبيرة من الماضي والحاضر، وبذلك، يتيحون للطلاب الإلهام والتخيل.

يتطلب تشجيع التعلُّم الموجه ذاتياً بذل مزيد من الجهد من كلِّ من المعلمين والطلاب، يتجاوز التعليم المعلوماتي. إضافة إلى أن ميزات التعلُّم الإستراتيجي، بطبيعتها، مهارات عملية هدفها الطالب، وهي جزء لا يتجزأ من التعليم التحويلي.

تمييز التعليم التحويلي

كيف يمكن لنا أن نميز التعليم التحويلي؟ عندما ندخل إلى إحدى الغرف الصفية، نواجه ثلاثة عناصر ظاهرة للعيان: المنهاج، والمعلم، والطلاب. وكل واحد من هذه العناصر يجب أن يكون جزءاً لا يتجزأ من مبادئ التعليم التحويلي التي تُظهر حيوية التآزر.

- المنهاج: هل يستحق المحتوى أن نعرفه؟ هل هو: على قدر من الأهمية، ملهم، باعث على التحدي، مفيد؟ ليس من الضروري أن نتعلم كلَّ موضوع مطروح؛ إننا لا نستطيع معرفة الموضوعات كلها. هل المعلومات المقدمة لها تطبيقات في المجتمع؟ هل لها معنى

في حياة الطلاب حالياً؟ إن مجرد كون المعلومات قديمة لا يعني أن المعلم لا يستطيع أن يجعلها مقبولة. هل يبدو من المرجح أن ما يجري تعليمه سوف ينتقل على نحو فاعل إلى العالم الحقيقي؟

- **المعلم:** نحن نتحدث عن الطفل المتكامل، ولكن هل ترى دليلاً على معلم متكامل؛ معلم يعرف المجال الأكاديمي، ويمارس أسلوب التدريس بصورة جيدة، وينتمي إلى الطلاب؟ هل تقوم المعلمة/ المعلم بكل احترام بربط المعلومات بالطلاب من خلال التدريس عبر فهم ثقافي وفردى لهم؟ هل تشعر المعلمة/ المعلم بالحماس تجاه مهنة التدريس؟ هل هناك إبداع ومشاعر في طريقة التدريس؟
- **الطلاب:** هل يستخدمون ميزات التعلّم الإستراتيجي التي تتضمن: الانفتاح، والشك، والمثابرة، والكياسة، والخيال، والفضول. هل هم منخرطون في التعليم ويحلون المشكلات بنشاط؟ هل هناك أيّ دليل على أن الطالب يتبنّى قيم المعلم السليمة وتوجهاته؟

قصة تعليم

تأملوا القصة الآتية عن معلمة لغة إنجليزية سابقة في ولاية مسيسيبي في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية. هل يستحق موضوعها أن نعرفه؟ هل جين معلمة متكاملة. انتبهوا لطريقتها في الإلهام، وأيضاً لتشجيعها على ممارسة ميزات التعلّم الإستراتيجي. أين يمكن لنا أن نلاحظ هذه الممارسات في طلابها؟ لاحظوا أيضاً تطور الثقة المتبادلة التي تميز العلاقة التحويلية بين المعلم والطلاب، وفكروا في السؤال في الشكل 1.3.

«عُيِّنْتُ لتدريس اللغة الإنجليزية للمرحلة الأولى في المدرسة الثانوية في أكسفورد، بولاية مسيسيبي، معلمةً للصف الأول. كنت قد حصلت على شهادة

جامعية في اللغة الإنجليزية، ودبلوم في التربية، وبدأت الدراسة؛ للحصول على درجة الماجستير في التربية، وإعداد بحث عن القراءة من الروضة وحتى الصف الثاني عشر. كانت السنة الأولى للتدريس ممتعة، على الرغم من تقلبها بين نجاح وإخفاق. كل معلمة تأتي إلى الصف الجديد في المدرسة وهي تعرف أشياء معينة. في حالي، وفي تلك الأيام، إليكم ما عرفته:

- كان الطلاب قد قُسموا إلى مراحل، من واحد إلى خمسة، تبعاً لتحصيلهم في اللغة الإنجليزية والرياضيات. كان الطلاب في المرحلة الخامسة من المتفوقين، وكانت المقررات الدراسية تعدّهم لدخول الجامعة. في المرحلة الأولى، كان هناك الطلاب الذين هم في خطر أكاديمي وسلوكي.
- كان عليّ تدريسهم مهارات القراءة، وخمس مواد من الأدب التقليدي (الكلاسيكي)، والقواعد، والشعر، والكتابة.
- كان لديّ ستة وسبعون طالباً في خمسة صفوف؛ سبع طالبات وتسعة وستون طالباً. خمسة طلاب كانوا من البيض والبقية من السود. وكانت الصفوف كافة مزيجاً من خلفيات عرقية واجتماعية متفاوتة، سواء صفوف الصغار أو الكبار.
- عندما كانت تظهر أيّ مشكلة في عدم الانضباط، كان الطلاب يُرسلون إلى الإدارة، حيث كانوا يُعاقبون بضرهم بعضاً طويلاً.
- لم يكن لديّ أيّ مواد دراسية تناسب قدرات الطلاب في القراءة، للصفوف ما بين الصف الثالث إلى الصف التاسع، وكان معدل القدرات في القراءة يعادل الصف الخامس.

هذا ما عرفته قبل عملية التدريس، وإليكم الآن ما لم أكن أعرفه قبل أن أبدأ التدريس:

- كان ثلاثة معلمين متمرسين قد درّسوا تلك الصفوف، لكنهم استقالوا بعد مدة قصيرة.

- كانت تجمع الطلاب علاقات صداقة، وكانوا يتأمرّون لحملي على الاستقالة.

- كان الطلاب يناقشون كل ما يجري في الصفوف الأخرى، ويقارنون بينها.

ما يجعل من الأمر حكاية لا تُنسى هو أنني أحببت السنة الأولى في التعليم التي كانت ناجحة. لم أرسل أي طالب إلى الإدارة حتى شهر إبريل (كان طالب واحد نُقل من الصف الثاني في شهر كانون الأول). ومع أنهم حذروني بعدم إحضار أي شيء شخصي أو أي شيء لتزيين الصف؛ لأنّ الطلاب سيتفونونه، فإنني أصبحت بمرور الوقت قادرة على إحضار نباتات وبيوسترات (لوحات إعلانية) ولوحات توضيحية، وأشياء شخصية أعلقها على الحائط أو أضعها على مكتبي. ولم يُتلف أي شيء على الإطلاق. في الحقيقة أنه خلال الربع الأول، أخذ الطلاب يروون النباتات، ويعدّلون وضع اللوحات التوضيحية، وينظفون مكاتبهم.

في بداية السنة الدراسية، قمت بالإدلاء بإعلان جريء. قلت للطلاب: إنه سيكون لدينا لوحات حائط، وإنّ بعضها سيكون مخصصاً لهم ليكتبوا عليه، في حين تكون الأخرى لمقارنة ما كنا نفعله أكاديمياً، وإنني سأقول لهم ما هي اللوحة الأفضل بعدئذ. بدأت العام الدراسي مع لوحة إعلانات، غطيته بورقة بيضاء، وكتبت عليها: أهلاً وسهلاً بكم، ووضعت علبة من الأقلام الملونة على طاولة قريبة. كان يمكنهم توقيع أسمائهم على بطاقة الترحيب المخصصة بهم إذا رغبوا في ذلك. شارك الجميع في الكتابة، وكانوا يتفقدونها كل يوم

ليروا من وقع اسمه. بعد ذلك، أعلنت أنني سأضع لوحة حائط تتناسب مع رواية سوف نقرأها. قلت لهم: إنني لا أملك كثيراً من المال، وإنني أريد استعمال المواد مرة أخرى. بعدئذٍ، لم أجد أي نقطة على تلك اللوحة، ولم يتلف أي شيء. طوال العام، كانت اللوحة الإعلانية تتغير بانتظام تبعاً لما ندرسه مع تغيير ما كتب على لوحة بطاقة الترحيب بحسب مناسبات الأعياد.

أعلنت أيضاً أننا سوف نحلّ مشكلات الانضباط المخصوصة بنا في غرفة الصف. ووضعت نصب عيني عدم إرسال أي منهنم إلى الإدارة. عندما أستعيد الأحداث، أرى أن قراري هذا لم يكن حكيماً، إذ أخذوا يضعون أشياء غير لائقة على مكثبي، ويستخدمون لغة وقحة لاستفزازي، ويقومون بإيحاءات بذيئة. ولكن بعد ثلاثة أسابيع من اختبار الطلاب لي، استقر وضعهم، وبدأنا نحقق تقدماً دراسياً. أخيراً، فهمت أن الصفوف كلها كانت تتأمر معاً؛ لأنها جميعها فعلت الشيء نفسه. ونتيجة لذلك، كنت أمر بخبرة مؤامرة اليوم خمس مرات. لاحقاً، تحول المخطط إلى مقارنة الأنشطة الصفية إلى حد أنني أصبحت في حاجة إلى التأكد أنني قمت بالشيء نفسه كل يوم في الصفوف الخمسة كلها. لم يكن الطلاب يرغبون في تفويت أي نشاط، وهذا ما جعلني أخطط بحذر لتأكد أن ما فعله في أول صف كان ناجحاً؛ لأنه كان عليّ تكراره أربع مرات أخرى.

أيضاً، أعلنت أننا سوف نقوم برحلات ميدانية، وهو أمر آخر نُصحت ألا أقوم به. كنا قد ذهبنا في ثلاث رحلات ميدانية قبل القيام برحلة لا تنسى. كان الوقت ربيعاً، وكنا سنقرأ (وردة لإيميلي) *A Rose for Emily*، وهي مجموعة قصص قصيرة للكاتب الأمريكي ويليام فولكنر، تدور أحداثها في قرية أكسفورد في ولاية مسيسبي. كان قبره على تل قريب من المدرسة، وكانت خطتي اصطحاب كل صف إلى المقبرة أعلى التل، والذهاب إلى قبره، وقراءة الفقرة الأولى بصوت عالٍ هناك.

وفي صباح يوم جمعة مشرق، سرت أنا والصف الأول صعوداً عبر التل إلى المقبرة. كنت أتكلم عن فولكنر فيما نحن نعبر البوابة. وفجأة، توقف طلاب الصف جميعاً قريباً من المقبرة؛ لخوفهم من وجود أشباح. لم أعرف ماذا أفعل، كانت تلك خطتي للدرس ذاك اليوم، وكان لا يزال أمامي أربعة صفوف أخرى. أخيراً، استطعت إقناعهم بالسير معي نحو القبر بقراءة الفقرة خارج البوابة، وهو ما فعلناه، في حين كانوا ملتصقين ببعضهم وبني طوال الوقت. وقد تكرر الحدث ذاته مع الصفوف الأربعة الأخرى، مع استثناء واحد، هو رفض أحد الطلاب دخول المقبرة، وكان عليّ أن أترك معه طالباً آخر عند البوابة.

عندما عاد بقية الصف بعد أن رأوا القبر، لاحظت عصفورين خارج البوابة تماماً، وكانا يحدثان جلبة شديدة. كانا يطيران من الشجرة إلى الأرض، حيث كانت فراخهما ملقاة نافقة. وتبيّن أنّ الطالب الذي رفض دخول المقبرة - وهو الطالب نفسه الذي حوّل إلينا من الصف الثاني في كانون الأول - هو الذي قتل تلك الفراخ. عندما عدنا إلى المدرسة أخذته إلى الإدارة - وكان هو الطالب الوحيد الذي أخذته إليها ذلك العام.

الشيء المؤثر في تلك الذكرى هو أنني بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم، كنت في غرفتي أرتب بعض الأوراق. كانت النوافذ مفتوحة، وسمعت أصوات الطلاب تتاديني. كانوا طلاباً كثيرين من صفوف مختلفة، وقالوا لي: إنهم ذهبوا إلى المقبرة، وعبروا البوابة، وجمعوا صغار العصافير النافقة ودفنوها. عندها بكيت. في يوم الإثنين المقبل، كانت لدينا مناقشة جيدة عن أهمية الحياة وقيمتها.

وفقاً للمهارات المطلوبة لتدريس المرحلة الأولى، كان عليّ تدريس خمس روايات تقليدية قديمة (كلاسيكية)، هي: الحرف القرمزي *The Scarlet Letter* من أعمال ناشيال هوثورن Nathaniel Hawthorne، والمخطوف *Kidnapped*، وجزيرة الكنز *Treasure Island* من تأليف الكاتب الأسكتلندي

روبرت ستيفنسون Robert Louis Stevenson، و **دراكولا Dracula** من أعمال الكاتبة الأيرلندية برام ستوكر Irish author Bram Stoker، وأوليفر تويست *Oliver Twist* للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز Charles Dickens. لم يكن أيّ من الطلاب يمتلك القدرة على قراءة تلك الروايات. لذا، حصلت على نسخ مختصرة من تلك الروايات كتبت لمستوى أدنى من القراءة، ثم أخذت أقرأ فقرات مختارة منها بصوت عالٍ. أحبّ الطلاب القراءة لهم بصوت عالٍ. وبين قراءة الروايات الكلاسيكية، كنت أقرأ لهم قصصاً قصيرة ومقالات مختصرة. في كلّ يوم، ما إن يدخلوا غرفة الصف، كانوا يسألون بلهفة: هل ستقريئين لنا اليوم؟ وكان جوابي دائماً هو نفسه: نعم، إن أنهيتم واجباتكم. كانت نتيجة هذا الجواب إنجاز الطلاب لمهامهم دون أيّ تأخير، وتحسن حضورهم، وأخذوا يراقبون بعضهم ليتأكدوا أنّ الواجب قد أُنجز، وعليه يمكن أن أقرأ لهم. خلال وقت القراءة، كنا نجلس معاً على شكل دائرة. كنت أعلم أنّ القراءة للطلاب بصوت عالٍ هي السبب الذي جعلني قادرة على استكمال المهارات المهنية اللازمة لتدريس اللغة الإنجليزية للمرحلة الأولى.

كنت قلقة بشأن تدريس وحدة من الشعر بسبب درجات طلابي المتدنية في القراءة. أخيراً، في يوم جمعة من شهر إبريل، لعبنا معاً لعبة الكلمات. أعطيتهم عشر كلمات، وطلبت إليهم أن يضعوا أمام كلّ منها أول فكرة تخطر ببالهم. تسع من الكلمات كانت أشياء تبعث على المتعة: الرحلات، السباحة، كرة القدم، الموسيقى، وهلمّ جرّاً... في حين كانت الكلمة الأخيرة هي الشعر. النتيجة، لم أسمع تعليقاً إيجابياً واحداً على كلمة الشعر، لقد عبّروا عما يختلج في نفوسهم إزاء الشعر بكلمات مثل: مثير للاشمئزاز، لا أحبه، لا أفهمه، لا أستطيع نظمه.

قلت لهم: إننا سنبدأ بدراسة الشعر يوم الإثنين، وطلبت إليهم الانتباه الجيّد. عندما دخلت كلّ مجموعة الصف في اليوم الموعد، كنت قد وضعت

مناظر طبيعية على الجدران في أرجاء الغرفة. أعطيت تعليمات للطلاب ليتجولوا في الغرفة، ويكتبوا باختصار: كلمات، عبارات، أفكاراً، جملاً، تتعلق بالمناظر الطبيعية. واستخدمنا ما كتبوه أسطراً في قصيدة. عندما عادوا إلى مقاعدهم، اختاروا الأسطر التي يفضلونها. في مجموعات، رتبوا الأسطر بطريقة يمكن أن تجعل منها بيتاً من الشعر الحرّ، وكتبوا سطرّاً في النهاية يربط الأسطر كلّها معاً، ثم اختاروا لها عنواناً مناسباً. كانت القصائد جميلة، وكان الطلاب مشدوهين من أن كتابة الشعر يمكن أن تكون بهذه السهولة.

بعد ذلك، كتب كلّ منهم مقطعاً من الشعر الحر، ومن ثمّ علّمهم كتابة الشعر العمودي (الأبيات والمقاطع والعروض... إلخ). آنذاك، أصبحوا قادرين على قراءة قصائد بعض الشعراء الأمريكيين والإنجليز وتذوقها، إضافة إلى أشعار روبرت فروست، ووليم ووردزورث. لكن الأمر المفاجئ حقاً هو أنهم واصلوا الكتابة بعد انتهاء حصة الشعر. كانوا يكتبون أشعارهم أو يطبعونها بحرص، ويلصقونها على ورق مقوى، ثم يعلقونها على الجدران. وكان كلّ منهم يشارك الآخرين فيما يكتب.

لقد مرت سنوات طويلة منذ كنت في صفوف تلك المدرسة الثانوية، من ضمنها سنوات امتهاني التدريس في الكلية. لم تكن السنة الأولى لي في التدريس في المدرسة الثانوية ممتعة فحسب، بل كانت خبرة رائعة أيضاً. لقد تعلمت ليس فقط أهمية إيجاد بيئة آمنة خالية من الأخطار ومواتية للتعليم، بل أيضاً بيئة يمكن للمعلم أن يكون مستريحاً فيها لكي يعلم. وتعلمت القوة التي تكمن في القراءة بصوت عالٍ، قوة حولت الطلاب كما حولتني. وتعلمت مدى أهمية الثقة للتأكد أنّ الطلاب سوف يقبلون المخاطرة ويتعلمون. (طُبعت القصة ونُشرت بإذن من جين أندرسون شول (Jane Anderson Scholl)

التعليم التحويلي

أين يمكن للتعليم التحويلي أن يحدث في المستقبل؟ وكيف؟ يأخذ التحويل صوراً متعددة، مثل: الاستجابة للاحتياجات الثقافية للطلاب ذوي الحساسية باهتمام، والمطالبة بتحمّل الطلاب المسؤولية عن تعلّمهم، وتعليم الشخص المتكامل، وبناء آمال كبيرة على الطلاب لمواصلة التعلّم مدى الحياة.

لا شك في أنّ التعليم هو نتاج الثقافة التي نوجدها في مدارسنا، فالتعليم التحويلي يشدّد كثيراً على العملية بصفاتها مُنتجاً؛ لأنّ العمليات الفاعلة يمكن أن تنتج أيّ منتج أو حصييلة مرغوبة. مثلاً، التدريس لغاية شرح المحتوى متجذّر في ثقافة المنتج السائدة في التعليم، إضافة إلى أنّ تطوير صفات التعليم الإستراتيجي من خلال تعليم مدرّس ومحفّز متجذّر في الثقافة العملية في غرفة الصف.

مكونات التعليم التحويلي

استخدم قائمة عناصر غرفة الصف هذه لتساعدك على تحديد مكونات التعليم التحويلي في قصة جين أندرسون شول التي وردت سابقاً، ولمعرفة كيفية توظيفها في غرفة الصف المخصصة.

المنهاج الدراسي

هل ما تُدرّسه جين يستحق المعرفة؟ أعط أمثلة على أساليب التدريس (البيداغوجيا) المستخدمة الملهمة والمقصودة؟ ما التطبيقات الواضحة للعالم خارج غرفة الصف؟ كيف وُظفت جين العناصر التقليدية للموضوع الدراسي وربطته بالحياة الحقيقية لطلابها؟

المعلم

اذكر كيف تعرض جين التعليم المتكامل من منظورها بوصفها باحثة، وممارسة للمهنة، ومعلمة مهتمة. هل كانت تحترم طلابها بأنهم متعلمون أم أشخاص؟ أي درجة يمكن أن تعطيهما على مقياس الحماس؟ في قصتها، أين ترى الإبداع والمشاعر؟

الطلاب

أعط أمثلة محددة عن الجوانب التي أظهر فيها الطلاب صفات التعليم الإستراتيجي؟ هل كان الطلاب مشاركين في العملية التعليمية وحلّ المشكلات؟ أخيراً، اذكر مثلاً للتحوّل المتبادل؛ كيف يُظهر الطلاب صفات جين في الاتجاهات والقيم؟

الشكل 1.3

وعندما لا يعرف المعلمون، أو لا يريدون، تبني سمات التعليم الإستراتيجي ليكون الطلاب موجهين ذاتياً ويتعلمون باستقلالية شديدة، فإنهم يستسلمون ضمناً للاهتمام الشائع بالتعليم المعلوماتي.

الأخطار والعوائق

إنّ التعليم من أجل الوصول إلى العمق والشمولية له أخطاره وعوائده. ويحمل التعليم التحويلي في طياته أخطاراً محددة؛ بسبب شموليته. يتعيّن على المعلمين التخلي عن بعض سلطاتهم؛ ليتيحوا للطلاب تنظيم أنفسهم بأنفسهم. وتتطلب ممارسة التعليم لتغيير حياة الطلاب معرفة بهم وربط التعليم بخبراتهم. الممثل داستون هوفمان Duston Hoffman فتح لنا نافذة لرؤية التعليم التحويلي؛ ففي مقابلة تلفزيونية بُثت عام 2006، قال: كل فنّ يتضمّن نسبة من الفشل. ولا شكّ في أنّ من يمتهنون التدريس يفهمون هذه الفكرة.

قيمة الفشل



تعني نسبة الفشل التي تحدت عنها هوفمان أن التجربة والخطأ أمر حيوي في عملية تكوين العاملين وبنائهم في العلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، والفنون الإبداعية، وفي التعليم ذاته. إنَّ بيئات التعليم الآمنة هي غرف صف حساسة (مثل غرفة الصف التي أشرنا إليها سابقاً في قصة جين شول) ؛ بيئة تسمح للطلاب بالتعثّر ومن ثمّ النهوض وحدهم، وأن يتعلموا من أخطائهم دون شعورهم بالمهانة أو الفشل التّام. بصفتنا معلمين، علينا أن نسأل أنفسنا: ما نسبة فشل الطلاب في صفوفنا؟ ما حجم الفشل المسموح به فيما الطلاب يخوضون تجربة التعلّم؟ الجواب وحده كافٍ ليقود إلى النجاح.

نحن نؤمن بأن المدارس أماكن يمكن للمعرفة فيها أن تحوّل الحياة. لكن الحياة لا تتحول في المدارس التي لا تعلم الشخص المتكامل. هنا يمكننا أن نتعلم من الماضي: كان التعليم التقليدي الكلاسيكي ذا قيمة بذاته؛ لأنه كان يهدف إلى المساعدة على التفاعل بين قضايا المعرفة وتحسين حياة الإنسان بمجملها.

لسوء الحظ، انقطع التعليم الكلاسيكي منذ مرحلة ما قبل الروضة وحتى الصف الثاني عشر، وقد أثر ذلك في كثير من الجامعات. وإليك قصة طريفة قديمة ذات مغزى عن مزارع وزوجته من ولاية فيرمونت في شمال شرق الولايات المتحدة. كان مزارع وزوجته في شاحنتهما على الطريق العام، فسألته: جيب، لِمَ لَمْ نعد نجلس قريبيين من بعضنا؟ ردّ عليها الزوج: بيبي، لست أنا من تحرك من مكانه! الطلاب لم يتحركوا من أماكنهم، وكثير من المضمون لم يتحرك أيضاً. لكن التعليم هو الذي تحرك بعيداً عن جذوره الشاملة، وإن الشجاعة والمثابرة سوف تكون مطلوبة من المعلمين الذين يريدون تحويل الحياة.

أفكار ختامية

يتطلب تعليم الطالب المتكامل التزاماً بطريقة تدريس للتعليم الكامل، وهذا يعني أنّ المعلمين يعملون؛ لتحقيق الأهداف الشاملة أكاديمياً واجتماعياً وروحانياً. ويمكن لمواصفات التعليم الإستراتيجي أن تساعد المعلمين على الاهتمام الشديد بالمهارات العملية اللازمة للفهم العميق، وعلى تحويل الطلاب. ويتضمن التعليم التحويلي نظرة تأملية في كل من المنهج، والمعلم، والطالب. المعلم التحويلي ملتزم بالطالب بصفته إنساناً متكاملًا. ويتمثل دور المعلم في إعداد عقول الطلاب، وبالتشديد قلوبهم أيضاً؛ ليكونوا راغبين في مزيد من التعلّم والاستكشاف. لذا، هناك حاجة ماسّة للمعلم التحويلي إلى تطوير استعداد الطالب لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين.

